16 محرم الحرام 1431هـ - 02 يناير 2010م - العدد: 330-331

الوحي حقيقته ووظيفته

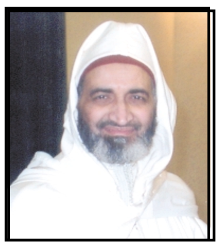

د. فريد الأنصاري
رحمه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، نسأل الله النجاة والعتق لنا ولكم وللمسلمين أجمعين من النار.

في حقيقة الأمر أيها الأحبة الكرام ما تُلي من كلام الله جل وعلا قبلُ كان كافياً وشافياً ووافياً، وكل الكلام الذي سأحاوله بحول الله جل جلاله إنما هو يدور حول ما قُرئ قبل قليل.

وحول طبيعة هذا المقروء القرآن، الوحي، ولذلك عبرت بعبارة "الوحي" في عنوان هذه الكلمة كما قرأتم : **«الوحي، طبيعته أو حقيقته، ووظيفته»**، وكان يمكن أن أقول القرآن، وكل ذلك سواء، لكن التعبير بالوحي عندي مقصود؛ لأنه المفتاح.

الوحي : طبيعته ووظيفته

الوحي هو اللفظ المفتاح لإدراك معنى القرآن، يعني إدراكَ معنى القرآن ليس من حيث التفسيرُ، لا، قبلَ ذلك، من حيث طبيعةُ هذا المسمى القرآن، ما معنى القرآن؟ ما معنى كتاب الله جل جلاله؟

فكلمة الوحي هي المصطلح المفتاح لهذا المعنى العظيم، الذي عليه قامت هذه الأمة، وبه ما زالت قائمة، وبه تتجدد في كل حين بإذن الله، أقْرأُ آيةً من كتاب الله جل وعلا لها دلالة في هذا السياق أو على الأقل تُثير هذه الحقيقة في أنفسنا، وذلك قول الله جل وعلا على لسان رسوله محمد عليه الصلاة والسلام بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إنما أمرتُ أن أعبدَ رب هذه البلدة الذي حرَّمها وله كلُّ شيء وأُمرتُ أن أكون من المسلمين، وأن أتْلُو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فقُلْ إنما أنا من المنذرين﴾(النمل : 93- 94)، هذه الآية بما فيها من أدوات الحصر : "إنما"، مرتين، تدل على مفهوم عظيم جدا، مرتبط بطبيعة هذا القرآن، ومرتبط بوظيفة هذا القرآن الوحي، ودالٌ أيضا على مدى البعد الذي نعانيه نحن كمسلمين عن حقيقة القرآن الكريم، ﴿إنما أمرتُ أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها وله كل شيء﴾ يعني لا وظيفة لي -القول لرسول الله ﷺ بالمعنى محكيا عنه، يحكيه رب العزة جل جلاله- "إنما" كما تعلمون حصرٌ.

أي لا وظيفة لي، ولا مهمة لي إلا أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذي حرمها أي مكة، وله كل شيء، أي بما هو خالق للعالمين، الخالقية، وله كل شيء ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أن أُسْلم وجهي لله الذي خلقني، يعني الخضوع التام.

فكل هذا كما تعلمون معنًى أو معانٍ معلومة لنا بشكل بدهيٍ، توحيدَ الله عز وجل، أيٍ عبادتَه، والدخول في زمرة المسلمين، والذوبان في بيئة الإسلام، والانسجام مع البيئة الإسلامية.

كل هذا واضح، لكن الشيء الغريب هو قوله بعد ﴿وأن أتلو القرآن﴾.

هذه وظيفته الدعويةُ، وظيفتُه التجديدية قائمةٌ فقط على تلاوة القرآن؛ لأن قوله ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرَّمها وله كل شيء﴾ هذا من حُقُوق الرَّبِّ على نفسه ﷺ دخولُه في زُمرة المسلمين أيضا تابعٌ لهم، فهذا سلوك -لازم كما يقول النحاة غير متعد- يعني هو في ذاته عابدٌ لله، ثم هو في ذاته مسلم لله، لكن تلاوة القرآن فعلٌ متعدٍّ إلى الآخرين، ﴿وأن أتْلُو القُرْآن﴾ الدال عليه ما جاء بعده، وذلك قوله ﴿فمن اهْتَدى﴾ بتلاوة القرآن، فلنفسه، ﴿فإنما يهتدي لنفسه﴾، ﴿ومن ضَلّ فقل إنما أنا من المنذرين﴾.

النذارة كل النذارة في تلاوة القرآن.

ولذلك نضع دعوى في البداية ونستدلُّ عليها بعد بحول الله بما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، **تلاوة القرآن الكريم، وتلاوةُ القرآن فقط، قادرةٌ بإذن الله على فعْل كل شيء، قادرةٌ على التأثير في جميع الحياة العمرانية، سياسة، واقتصادا، واجتماعاً، ما شئت ما شئت من مكونات العمران البشري.**

تلاوة القرآن فاعلة في كل شيء، لمن يتلوه حقا، قد يقول قائل هاهو ذا كتاب الله يُتْلى بيننا صباح مساء، وكلٌّ منا يتلو على قدر طاقته ما يسر الله له من القرآن، وكثير يشتكي أنه لا يجد لذلك أثرا في قلبه، ولا يجد لذلك أثرا في الواقع، إصلاحا وتصحيحا وتقويماً.

المشكلةُ الأساس هي هنا :

كيف نتلو القرآن؟

كيف نقرأ القرآن؟

أو بأي اعتبار؟

قلت في بداية الكلام، الكلمة المفتاح هي الوحي، رسول الله ﷺ كان يتلقى القرآن وحياً وأصحابه أيضاً كانوا يتلقونه، بل كانوا يتلونه وحيا، وسأبين هذا بحول الله، ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾(النجم : 4) ﴿قل إنما أُنْذِرُكم بالوحي﴾(الأنبياء : 45).

فالوَحْيُ له دلالتان، أعني هذا اللفظ "الوحي"، دلالة مصدرية من وَحَى يَحِي، أي عملية إنزال القرآن، أو تنزل كلَام الله من عند الله عبر واسطة الملك جبريل على قلب محمد عليه الصلاة والسلام، فهذا الحدثُ مصدرٌ أو معنى مصدريٌّ وهو معنى الوحي.

وهذا المعنى انقطع؛ لأنه لا نبيَّ ولا رسول بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، لكن هناك معنًى آخرَ للوحي لم ينْقطع، وهو المعْنى الاسمي، فكَوْنُ القرآن وحياً صار هذا اللفظ اسمًا له، لقبًا له، صفةً له، ولك أن تقول هذا القرآن هو الوحيُ، والوحيُ هو القرآن، فحينما قال ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ يعني بالقرآن، بنصوص القرآن، بآياته، بسوره، فذات القرآن وحْيٌ، وهذا لم ينقطع ولا يمكن أن ينقطع، فتلقِّي أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام للقرآن عن رسول الله، كان بهذا الاعتبار، ذلك التلقِّي كان بهذا الاعتبار أي باعتباره وحْيًا.

> **أول شيء يتحققه الإنسان، حينما يتحقق من معنى الوحي القرآن، أن القرآن يُعَرِّفُه بصاحبه -الله جل جلاله-.**
> **هذا الذي يغيب عنا أيضا كثيراً ونحن نقرأ القرآن، صحيح نحن مؤمنون لا شك في هذا، وعلى يقين بأن هذا القرآن أنزله الله من فوق سبع سماوات على قلب رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، ولكننا نَنْسى أثناء التلاوة نَنْسى، يجب أن نتحقق من أن الله جل جلاله إذ نقرأ القرآن أنه سبحانه يتكَلَّم.**

لنرجع إلى أصل الإشكال، نحن نقرأ القرآن، ولكننا في غالب أحوالنا الغالب الراجح كما هو مشاهد بيننا ومجرَّب أننا نقرؤه باعتباره مُصْحَفا، ويغيب عنَّا معنى الوحْي، بل إذا حضَر فإنما يحضُر المعنى التاريخيُّ الذي كان وانقطع.

أقول هذا القرآن يعني كان وحيا، لكن يغيب علينا أنه ما يزال أيضا وحيًا، وسيبقى كذلك وحْيا إلى يوم القيامة، هذا يغيب كثيرا، فالمعنى التاريخي الذي كان لا يؤثر فينا ذلك التأثير المطلوب، ولذلك نبقى حبيسي المُصْحف؛ لأن تسمية المصحف مصحفا، إنما هو من حيث كونُه صُحفا، أو صحيفة أي ورقا.

وبهذا الاعتبار ينقص تأثيره في القلب، بل نفقد مفتاحه الذي كان لدى أصحاب رسول الله ﷺ، إذ به كان يقَعُ للقرآن في قلوبهم ما كان يقَعُ.

فهذا المعنى العظيم الذي نحاول أن نصل إليه بحول الله الذي هو الوحْيُ هو موجود في كتاب الله جل وعلا، باق، وهو نور، كما قال الله سبحانه، ﴿ولكن جعلْنَاه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾(الشورى : 49)، ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾(النور : 39)، فالقرآن نور، وهذا النور ليس مَجازاً أي ليس تشبيها ولا تمثيلا، بل هو حقيقة، نور روحاني، لكنه نور خَفِيّ، إنما يُعطَاهُ ويُؤْتَاهُ من طرق باب القرآن الوحْيِ، حينئذ ينبثق له النور قطعا.

أما من بقي رهين الصحف أو المصحف، فسيبقى متبرِّكاً بتلاوة القرآن، بكل حرف عشر حسنات لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف، وهذا مقام جيِّد، لكن القرآن الوحْيَ الذي غيَّرَ العالم كلَّ العالم في نحو ربُع قرن من الزمن، بل لم يكَدْ ينتهي القرن الأولُ الهجري حتى كان الإسلام مستقِرّاً في الأندلس، محيطاً بأوروبا من جميع جهاتها، إنما القرآن النور، الوحْي هو الذي استطاعِ أن يخرق الظلمات، ولكن بسبب حمْل القلوب المشتعلة، وليست القلوب المنطفئة، التي بقيت رهينة التاريخ أو رهينة معنًى كان وظُنّ أنه انتهى.

سأضرب مثالين؛ لنعرف طبيعة تعامل أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام مع القرآن.

● **أولاً** : مثال الرجل الصحابي من الأنصار، الذي أُصيب بأسهم ثلاثة في ظهره، وهو يتلو سورة من السور، وقد كلَّفَهُ رسول الله ﷺ هو وصاحبٌ له بحراسة ثغر في غزوة من الغزوات أو بالأحرى عند الرجوع من غزوة من الغزوات، فقال الرجل لصاحبه وهُمَا بفَمِ الوادي، يعني في منطقة الحراسة، والصحابةُ مع الرسول عليه الصلاة والسلام في داخل الوادي، حينما كلفهما الرسول عليه الصلاة والسلام بالحراسة بَقِيا بعيدا في مبتدأ الوادي أي في فَمِه يحرُسان الليل.

فقال أحدهما للآخر أَيَّ قسْمٍ من الليل تحب أن أَكْفِيَكَهُ؟ أوَّلَه أم آخِرَه؟ يعني سيقتسمانِ الحراسة، أحدهما يحرس المسلمين أول الليل، النصف الأول، والآخر يحرس المسلمين النصف الثاني.

فقال بل اكْفني أوَّلَه، يعني يريد أن يتعبد ربه ويقوم بالحراسة في النصف الآخر، ليدرك ثلث الليل الأخير، كما هو معروف لفضيلته ولكرامته.

فقال إذن استرح، فقام الرجل يصلِّي ويَحْرُس، يقوم الليل في أول الليل، فجاء رجل من الكفار وكان له ثأرعلى محمد وأصحابه ﷺ، أي الدم، فأرسل سهما إلى هذا القائم الذي يصلي بالليل فأصابه في ظهره، قال فنزعه فوضعه، أي ألقاه جانبا وجعل الدم يسيل، وكان آنئذ وهو قائم يقرأ أو يرتل سورة من القرآن الكريم، ثم رماه بسهم ثانٍ فنزعه ووضعه، ثم رماه بسهم ثالث، وهنا صَعُبَ على الرجل أن يبقى واقفاً، وركع ثم سجد، فسلم وأيقظ صاحبه، فلما استيقظ الرجل ورأى نزيف الدم الشديد، وقد لطخ ثياب صاحبه، علم أن عدوًا كان يرميه بالسهام، فقال سُبحان الله أما

تتمة : ص 53